

الاسم الكامل : سميرة حفصي

الرتبة العلمية : دكتوراه علوم

التخصص: أدب عربي حديث ومعاصر

جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة

محور المداخلة: ما بين ثقافة العولمة وعولمة الثقافة الشعبية الرهانات والمصادر والآفاق

الكلمات المفتاحية : ثقافة شعبية ، أدب الطفل ، عولمة ، ثقافة الصورة.

عنوان المداخلة : عناصر الثقافة الشعبية والطفل قراءة في كتاب مشكلات الأدب الطفلي
لسيبيليا ميراييل .

الملخص

يمثل أدب الطفل بوصفه قيما جمالية ودلالات مشحونة بالوعي والتأمل في منعطفاته السرية الملتبسة التي اقتحمها الأديب لحل المشكلات التي تساعد على تربيته وثقافته وتوجيهه عالما مليئا بالأصوات والترنيمات والألعاب التي تحكي عالم الطفل . وفي سياق هذه المعامرة الفريدة فإن ما تفرزه الحضارة الكونية هو ممانعة هذه الإمكانيات الحساسة وتبديلها بأشكال مشوهة المعالم ترسخ لثقافة ما بعد المكتوب والتي تعني ثقافة الصورة التي أصبحت المصدر الجديد لتشكيل الوعي والوجدان والذوق وفي هذه الطريقة الجديدة لإدراك عالم الطفل والتعبير عنه، يطرح نمط التنمية الثقافية والقيمية التي تفرضها العولمة على الإنسانية الطفلية خرقا لقدرته الشفوية التي تساعد على التكيف الاجتماعي وتشوه شخصيته في المرحلة التكوينية . وهذا المشروع الذي يفرض سلطته الرمزية يفجر معه تساؤلات حول رؤى نقدية ورهانات إنسانية الطفل التي تحمي رمزيته وقيمه بواسطة المادة التراثية. وعليه فإن ضرورة استثمار عناصر الثقافة الشعبية بوصفها الوعي والأفق المضيء الذي يعتصم ملكته منالتفتت.

تضع (سيسيليا ميراييل) الكاتبة البرازيلية منذ الصفحة الأولى القارئ موضع شك وهي تطرح سؤالها الحارق إذا كان هناك ما يسمى أدب طفل؟ والذي تلحقه بمفاهيم عامة وبمنظومات فكرية من خزينة الماضي كمغامرات غوته وتلماكو وكثير من القصص التي تعود إلى المرحلة الكلاسيكية . وتستمر في عرض حاورتها الموضوعية حول إنسانية الطفل والتي تطررها بالعديد من الإشكالات التي تخص تربيته وتوجيهه وقيمه الذوقية والجمالية والتي تهدف من خلالها إلى توحيد ثقافته على المستوى الكوني. ورأينا في تساؤلاتها وتحليلاتها طريقا لكشف عناصر الثقافة الشعبية والطفولة .

2. الجدل الأخلاقي في أدب الطفل

"إن الطفولة هي وقت البحث الصعب ومحاولة الاكتشاف والمطالب العسيرة والرغبات غير المحققة ، إنها وقت الاصطدام بالحوازج التي تبدو غير مبررة ، وقت تحمل التكلف وأدب اللباقة التي لا معنى لها ، إنها في الوقت ذاته انطلاق التخيلات المثيرة ، إنها وقت الأمل ووقت النشوة لأن الجديد واكتشاف الجديد يكون دائما مشحونا بالنشوة والألم."¹

إن مدى تعقيد القضايا الأخلاقية التي يعج بها أدب الطفل جعل النقاد ينتبهون إل أهمية من يكتبون للأطفال لأن " لديهم واجب رعاية تجاه قرائهم ، بمعنى أن يحرصوا على عدم إيذاء الأطفال عاطفيا (مثل تخويفهم بشدة أو حرمانهم من الأمل) ، أو تعليميا (مثل تجنب تقديم معلومات خاطئة أو الوقوع في أخطاء نحوية ولغوية) وهذا القلق يذكرنا بأنه في أدب الأطفال لا تكون العلاقة بين الكاتب والقارئ علاقة طرفين متساويين ؛ بل إنها أيضا علاقة بين شخص بالغ وطفل. وقد يتضمن واجب الرعاية هذا القارئ ممارسة التحكم بطرق قد لا تخدم القراء الصغار."²

1.1 الطفل وأنطولوجيا الحكاية

وفي عصر تشابك الأشياء وغموضها تناقش الكاتبة "سيسيليا ميراييل" المعتقدات الجمالية الذاتية للأطفال التي تضع حبا في عالمهم يساعدهم على أن يصنعوا ذكرياتهم وحياتهم والتي تطبع علاماتهم في هذا العالم تراها متجسدة في الأدب الشفوي والمكتوب والذي يقوم على الخرافة والنكتة والحزورة والرواية والأغنية الشعبية ويساق إلى غايته وهي تطهير الزيف . "للمرة الأولى التي تذوقت فيها الكتب كانت بسبب السرور الذي

¹ جين كارل : كتب الأطفال ومبدعها ، ترجمة صفاء روماني ، منشورات وزارة الثقافة السورية ، دمشق 1994 ، ط1 ، ص 11 .

² كيمبرلي رينولدز : أدب الأطفال مقدمة قصيرة جدا ، ترجمة ياسر حسن ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، مصر ، ط1 ، 2012 ، ص 122 .

كنت أشعر به عندما كنت أقرأ القصص الخرافية المسيخ أوفيديو لأنني على الأقل بين سنواتي السبعة والثمانية ، كنت أقلع عن كل المباحج الأخرى لأقرأ هذه القصص الخرافية³

وتخضع الناقدة التراث الأدبي الشعبي الشفوي والمكتوب للدراسة الممنهجة وهي تساؤله وتنقده خارج سياقه الخاص حتى ينتقل من المجال الأنطولوجي إلى المجال الإنساني وهي تعرض خصوبة الحكاية في رواية القصص الخرافية المستمدة قيمها الحقيقية من المخزون الشعبي لأنه برهان عميق الأثر يعبر عن قيم أخلاقية تحاكي ماضيه الثقافي تزيد في معاني حياة الطفل وتعمل على تشكيل عالم تجنح فيه المخيلة" ولما وجد((لافونتان)) هذه القصص ، وبدت إليه أنها تحوي على قيم أخلاقية تليق بالأمراء . أعمل كل مهارته ليضعها في شكل شعر وقد مضى جزء من حياته في احتكاك ودي مع الطبيعة مما بالتأكيد أوقف لديه الحساسية لتأويل تلك الحقائق، وهي أن الوحدة والحكمة تتميزان، مضمرا[...]. وهكذا قصيدة لافونتان التي هي قصيدة لطيفة ونادرة التي كتبها إلى تلميذه ويقصد بها تسلية وتعليم طفل، كانت وستظل من أفضل القراءات .⁴

إن ما يعرضه الحاكي هو أفق متنوع للطفليمتد في التجربة النفسية والاجتماعية ومن هنا يصعب فصل البنية السردية عن المشكلات الكبرى المتعلقة بالقيم الأخلاقية التي تظهر فيها فكرة حساسية الطفل وتتجلى في مختلف المعاني التي ترتبط بذاتيته وتنقله من مستوى الاستمتاع إلى الإدراك والمعرفة. و"نصر ونؤكد على الاستمرارية التقليدية في الأدب الطفلي ، سواء أكان شفويا أم كتابيا ، لأننا نرى في هذا الأدب خطا من التواصل الإنساني منذ الطفولة ، على الرغم من المسافات والزمن ، مما يسمح أن نقول بوحدة التأليف. بسبب وجود هذا القاسم المشترك في القصص، والذي هو اشتراك في التعاليم ، في أساليب التفكير ، في الأخلاق والعيش".⁵

يتجلى أفق أدب الطفل في الكشف عن خباياه في شكل رحلة تستغرق القراءة الدائمة في أشكالها السردية التي تكون اتجاهاتها متنوعة وأهدافها متعددة. ويكشف هذا النوع الخاص من القصص أن " داخل الحكاية ليس الحدث الخارق هو المهم، بل المعنى الذي يعطي الحدث المحكي عنه طابع الدقة واليقين".⁶ و حتى لا يبقى

³ سيسيليا ميرابل : مشكلات الأدب الطفلي ، ترجمة مها عرنوق، دراسات نقدية عالمية، وزارة الثقافة ، دمشق ، ط1 ، 1997 ، ص 46.

⁴ المرجع نفسه ، ص 70 ، 71 .

⁵ سيسيليا ميرابل : مشكلات الأدب الطفلي ، ترجمة مها عرنوق، مرجع سابق، ص ، 76 .

⁶ عبد الحق منصف: أبعاد التجربة الصوفية الحب _ الإنصات _ الحكاية ، أفريقيا الشرق ، المغرب ، ط1 ، 2006 ، ص 287.

الأطفال غرباء في هذا الكون ويتعلموا الأفكار التي ولدوا ولم يتزودوا بها تشترك جميع الحكايات الخرافية بوصفها مجموعة من التيمات المتحولة يغيب فيها المنطق والعقل ويحضر فيها خيال المبدع أن تضمن الصحة النفسية للطفل. " تأسر الحكاية الخرافية الطفل لأنها تمثل العالم كما يراه مزيجاً من الطيب والحق من الباطل ، وتغرس فيه حب الفضيلة ، عندما يكون سعي الأبطال لتحقيق غاية سامية ، وكذا بغض الرذيلة ، إذا كان أبطالها من الأشرار الذين يقدمون له بصورة منفردة وكريهة ، وأيضاً تفتح شهيته على ما هو غامض وعجيب."⁷

وتدعم الكاتبة (سيسيليا ميراييل) رأيها باستحضار أمثلة " وعدنا القهري إلى طفولة غوركي gorki ، سنجد حافة الفولكا volga التكرار نفسه لسحر البروفنسا ، وسنجد هذا الطفل الآخر، إلى جانب الجدة التي تروي له القصص الرائعة لقطاع الطرق الطيبين ، القديسين ، الحيوانات ، القوى الشريرة . مهارة الرواية عظيمة ؛ فالملامح الصوت ، الإيماءات ، تضيفي على القصص الإغراءات المسرحية ، الملاحظة كثيراً في أساليب شعبية عدة. الطفل يصر على طلب قصص جديدة ... ولكن ليس هو فقط : البحارة ، أصحاب اللحى ، الناس الطيبون يتوضعون حولها ، يسمعون ، يضحكون بمدحون الرواية ، ويطلبون بدورهم : هلم أيتها الجدة وارو لنا أشياء أكثر... "⁸

3. أزمة أدب الطفل ما بعد انهيار الحضارات

تعالج الناقدة رأيها الذي تعتصم فيه لرؤية نقدية تطويرية تتعلق بأزمة أدب الطفل ما بعد الحضارة والتي تغيب فيها قيم الماضي . وتشكل وعي يشهد قطيعة مع المرجعية الدينية والأخلاقية والتراثية وكرس تصورات جديدة تتعلق بالذوق والمحيط والذات والتي توضح خريطة التفاعل الثقافي بصورة حرة تحطمت فيها كل القيود والحواجز. وفي هذا العلم الذي يشهد شرخاً في بنائه وهوياته المتصارعة ترى أن هذا السيل المتدفق من الصور الإعلامية المرعبة لا تضمن الأمن التربوي والأخلاقي لطفل في عمره الضعيف.

" يبدو السؤال خطراً في أزمت الحضارة كالتى نجتازها. القيم الحاضر ليست هي قيم الماضي. وهل بإمكانها أن تصير قيم المستقبل [...] "

⁷ موفق رياض مقدادي ، البنى الحكائية في أدب الأطفال العربي الحديث ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ط 1 ، 2012 ، ص 95 .

⁸ سيسيليا ميراييل : مشكلات الأدب الطفلي ، ترجمة مها عرنوق ، مرجع سابق، ص 86 .

القرن العشرين أجاب بطريقة مرعبة عن تلك التطلعات. أجاب بصوت أكبر الحروب في التاريخ ؛ وكل الوسائل التي كانت تبدو للإنسانية سعيدة و مزدهرة [...] كل سبل النزاهة والخير اقتلعت بذلك السيل الكبير الهائل وتحولت إلى خرائب [...] ضمن هذا التخريب تنبض الطفولة: الطفولة التي تشاهد بعيون خائفة المشاهد المسرحية ، التي لا يتجرأ كاتب أن يرويها لها. المشاهد الحية المعاشة _ لا المكتوبة . وإذا كان ما يقرأه الأطفال لا ينسونه ، فكيف سينسون ما يرونه؟"⁹

يختلف طفل أمس عن طفل اليوم ولكن تعميم هذه القيم المنفتحة لم يعد ممكناً لأنه يكشف عن مسار تخطى حدود ما هو إنساني وأخلاقي ولأنها لا تحافظ على التوازن النفسي والمادي المتعلق بذاتية الطفل وتدافع عن وجوده في وجه هذه الحلقة المفقودة المعالم. فإن هذا الاختلاف الماهوي الذي هو نتاج التفكير والتصورات يفرض إبداء حذر منهجي. و" لا تمثل العودة الكثيفة إلى الموروث الثقافي ، والاحتفال به على مستوى التعبير ، مظهراً للتحجر والتقليد دائماً. فقد تكون للظاهرة أسباب تاريخية واجتماعية بعيدة تماماً_ عن البنية الثقافية_، وإيقاع تحولاتها: صعوداً أو هبوطاً. ذلك أن المجتمعات التي يتعرض نسيجها الكياني للتمزيق ، وتهتز ثوابتها التي عاشت عليها طويلاً ، غالباً ما تجد نفسها مدفوعة إلى استثمار رأس مالها الرمزي : الهوية ، وتعظيم الشعور به إلى الحد الذي يتحصل فيه به توازن نفسي نحتاجه."¹⁰

تواصل الناقدة البرازيلية بث مفاصل حول أزمة أدب الطفل والتي تراها متجلية في ثقافة ما بعد المكتوب أي ثقافة الصورة التي تشهد كثافة غير مسبوقة نتيجة الحرية المطلقة التي يلحقها شعور واثق بالأنا وبقدرتها على التفكير والتفاعل مع الوضعية التطورية التي يشهدها العالم.

" آه أيتها الحرية ! كم جريمة ارتكبت باسمك ...؟"

الكل يعتبر أنه ليس فقط من الحق أن يفكر، بل أن يفكر تفكيراً فاسداً...أية قراءة سنعطئها للأطفال في هذا القرن؟

أضف إلى ذلك أن تأثير الكتاب الطفلي يتضرر بعوامل، ظاهرياً، بريئة. فإعلانات الحافلات؛ والإعلانات الجدارية يتضرر بعوامل ، والصور المنتشرة ، بشكل واسع ، من قبل كل دور النشر _ عن طريق الموضوعات التي تعالجها هذه الإعلانات والصور؛ أو وجهات النظر التي تقدمها ، واللغة التي تستعملها ، والقبول الذي

⁹ سيسيليا ميرابل : مشكلات الأدب الطفلي ، ترجمة مها عرنوق ، مرجع سابق ، ص 127 ، 128 .

¹⁰ _ عبد الإله بلقزيز : العولمة والممانعة دراسات في المسألة الثقافية، منتدى المعارف ، بيروت ، ط1 ، 2011 ، ص 71 .

تتلقاه _ تساهم في تشويش هؤلاء الذين سيقعون تحت تأثير العمل النافع لآخر كتاب اختير باعتناء.¹¹

تناقش الكاتبة التحولات الجذرية التي أهدقت أدب الطفل في قيم نفعية فرضتها الأنانية والمنزع المادي الذي تنقطع فيه الصلة بين ما كان مطروحا من أفكار لم تخرج من رحم التطور الاجتماعي وزخم الصور المبتوثة في ميادين التواصل . وفي هذا السياق "يتحول الوعي إلى مجال مستباح لكل أنواع الاختراق ؛ ثم تتكفل التقانة بمهندسة ذلك الإغراء وصناعة أسباب الوعي له ! وإذا ما أخذنا في الحسبان أن هجوم ثقافة الصورة على الوعي يجري في امتداد التراجع المروع لمعدلات القراءة في العالم ، تبينت لنا معالم النفق المظلم_ الذي يدخل إليه أدب الطفل_والوعي في عصر الصورة ."¹²

4. التراث الديني والشعري

هل هناك إمكانية لمواجهة زحفثقافة ما بعد المكتوب؟ وللإجابة عن هذا السؤال تناقش الناقدة عدة اقتراحات نوجزها فيما يلي:

" في القصص الدينية ، مثلا ، نهاية البطل الرئيسية القداسة ، والشيء نفسه في القصص الأخرى الأخلاقية ، فالأخلاق ببساطة ، هي القداسة التي يجب أن تكون الهدف : فالطيبة الصبر ، العطف ، التواصل ، بل كل الفضائل تميل إلى التقديس ، كما هو الحال ملاحظ في كثير من القصص الخيالية . وحتى عندما تملك القصص خصائص غير دينية ، كما في قصص الجن التي تكمن خلفها الخوارق أو الأعاجيب ، فعلى الرغم من تدخلات الكائنات الخيالية ، فإن الكمال الروحي هو الذي يأتي ليسهل كل المستحيلات ، وليتوج المنصريين بالمجد الأبدى."¹³

الكبار هم الذين يتكرون قصص الصغار ولأنهم يستخدمون الأدوات اللازمة التي تصيب مستواهم العمري الضعيف وتلطف ذوقهم المرح بقدرات سحرية وبشغف. تقترح الناقدة (سيسيليا ميرابل) وصفة إنسانية تتمثل في نوع الحكاية التي يظهر فيها البطل خارقا يسعى إلى السمو بالإنسان يتلقاه المتلقي الطفل بحواسه

¹¹ _ سيسيليا ميرابل : مشكلات الأدب الطفلي ، ترجمة مها عرنوق ، مرجع سابق ، ص 129 ، 130 .

¹² _ عبد الإله بلقزيز : العولمة والممانعة دراسات في المسألة الثقافية ، مرجع سابق ص 45 .

¹³ _ سيسيليا ميرابل : مشكلات الأدب الطفلي ، ترجمة مها عرنوق ، مرجع سابق ، ص 123 .

وخياله لا يراه في تجربته اليومية ولكنها تساهم في بناء ذوقه وقيمه . والربط بين الحكاية والواقع يحمل مغامرة فكرية تتجلى فيها ترسيخ القيم الأخلاقية.

إن ما تفرزه ثقافة الصورة في هيئة تعايش وتفاعل يعرض خزانة الطفل الفارغة إلى التشتت والتفتيت وفي هذا العدوان والعنف الرمزي الذي يجسد مشروعه ويعكّر صفو تفاعل الطفل بعالمه ويمحو تواجده فإن الدفاع عن أمن ثقافته وأدبه يفرض التمسك بالتراث الديني بوصفه قوة ممانعة من خطر التراكم والهيمنة. "ولأنه علينا أن نفكر ، ونعبر عن تفكيرنا . ولأنه علينا أن نكون واعين،دقيقين. العالم يعاني بسبب اتصالات غير كافية للبشر . ألا نقول بما نفكر ؟

ألا يكون من المناسب أن نختتم هذه الاعتبارات عن الأدب الطفلي ...

أيها الأطفال سأملّي عليكم

قواعد العيش الرغيد

لا يكفي فقط القراءة

بل لا بد من التأمل

إن الدرس لا ينتج الحكمة

من يصنع الحكماء هو التفكير.¹⁴

تختتم الكاتبة (سيسيليا ميراييل) رؤيتها النقدية لأدب الطفل بهذه الأبيات الشعرية بوصفها من القيم الجمالية ومن التأثيرات العميقة التي تتغلغل في نفسية الطفل التي انهمز فيها النص المكتوب أمام الصورة . " بزهور آلهة الشعر، سأضع أمامكم قرص عسل من الشعر يقطر حلاوة." ¹⁵ وفي حق الدفاع الذاتي من موجات متتالية ومرعبة تدعو الطفل للتفكير والقراءة الواعية.

¹⁴ سيسيليا ميراييل : مشكلات الأدب الطفلي ، ترجمة مها عرنوق ، مرجع سابق ، ص 147 .

¹⁵ سينتليير: أدب الاطفال من إيسوب إلى هاري بوتر ، ترجمة ملكة أبيض ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، سوريا ، ط1 ، 2010 ، ص 45 .

خاتمة

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على عتبات أدب الطفولة وفي تحولاته عبر الأزمنة وخرق حكايته التي تواجه رهانات ما بعد الثقافة المكتوبة الذي دشنته العولمة التي لا تستند على أصول وإنما مشروعها هو فرض سلطوي لا يتوقف في الزمان والمكان وإنما فرض هيمنته في كل الفضاءات ولم يكن الطفل بمنأى عن هذا الزحف والذي تحول إلى قلق يمزق نشأته ويفتت هويته وفي هذه المواجهة غير المتوازنة نجد أن التشبث بعناصر الثقافة الشعبية واستثمار التراث ضرورة للحفاظ على عالمه الحساس. وأوجزنا نتائج الدراسة في النقاط الآتية:

1. تمثل الأساطير والشعر والحكايات والحزورة والنكتة (الثقافة الشفوية والمكتوبة) النسغ الذي يتغذى منه الطفل ويتشرب من خزانته.

2. منذ القدم ساهمت عناصر الثقافة الشعبية في تربية وتهذيب ذوق الطفل سيما الحكايات ذات الطابع الديني والأخلاقي .

3. إن حساسية الطفل تتأذى بالتدفق الغزير الذي شهدته العولمة وهي تفرض خزائنها عبر ثقافة ما بعد المكتوب المعلقة في الجدران والمجلات والحافلات وعلى صفائح الجرائد ودور النشر وقاعات السينما .

4. تحولت ثقافة العولمة المهيمنة على العالم عدوان يجب مواجهته من خلال العودة إلى التراث واستثماره.
5. يشكل الشعر الطاقة الساحرة التي تستحوذ على مخيلة الطفل والذي يساعد في المراحل العمرية الأولى على التربية .
6. ضرورة انخراط مؤلف الحكاية _عادة يكون من الكبار_ في عالم الطفل والحرص على كل ما يشعر به من متعة ومنفعة.
7. الحفاظ على إنسانية الطفل وإبعاده عن المخاطر التي تمزق وتشوه عالمه البريء.

_ قائمة المصادر والمراجع

_ المراجع العربية

1. بلقزيز عبد الإله : العولمة والممانعة دراسات في المسألة الثقافية ، منتدى المعارف ، لبنان ، 2013.
2. رياض موفق مقدادي :البنى الحكائية في أدب الأطفال العربي الحديث ، عالم المعرفة ، ط 1 ، الكويت ، 2012.
3. منصف عبد الحق : أبعاد التجربة الصوفية الحب _ الإنصات _ الحكاية ، أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء المغرب ، ط 1 ، 2007 .

_ المراجع المترجمة للعربية

4. رينولدز كيمبرلي: أدب الأطفال مقدمة قصير جدا ترجمة ياسرحسن ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، مصر ، ط 1 ، 2012 .
5. ميراييل سيسيليا : مشكلات أدب الطفل ، ترجمة مها عنونق ،دراسات نقدية عالمية ، وزارة الثقافة السورية ، دمشق ، ط 1 ، 1997.

6. كارل جين : كتب الأطفال ومبدعوها، ترجمة صفاء روماني ، منشورات ، وزارة الثقافة السورية ، دمشق، ط1، 1994.ة

7. ليرسيث : أدب الأطفال من إيسوب إلى هاري بوتر ، ترجمة ملكة أبيض ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، سوريا ، ط1 ، 2010 .